المحاضرة السادسة

الكتابات التاريخية الفرنسية (العسكريين–الأكاديميين)

تمثل الفترة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر (1830–1962) مرحلة تاريخية حاسمة شهدت تفاعلات معقدة بين السلطة الاستعمارية والمجتمع المحلي، من بين أبرز سمات هذه الفترة النشاط الثقافي والعلمي الذي قادته اللجان والجمعيات الفرنسية، والذي بدأ مع أوائل الاحتلال واستمر حتى نهايته.

يمكن اعتبار هذا النشاط جزءًا من استراتيجية استعمارية تهدف إلى فهم الجزائر وتاريخها وثقافتها، وفي الوقت نفسه تعزيز الهيمنة الثقافية والسياسية وبرزت أعمال جماعية أنتجت موسوعات ودراسات ذات قيمة تاريخية، شملت مشاريع علمية وترجمات وتحقيقات أثرية، مما يعكس طموح الإدارة الاستعمارية في توثيق المعرفة واستخدامها كأداة للسيطرة، يهدف هذا النص إلى استعراض هذه الأنشطة الثقافية، وتحليل، دوافعها، وتقييم إسهاماتها في ضوء السياق الاستعماري الأوسع.

منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، اتجهت الإدارة الاستعمارية نحو تنظيم أنشطة ثقافية وعلمية تهدف إلى استكشاف البلاد وفهم واقعها الاجتماعي والتاريخي. كانت هذه الأنشطة في بدايتها تتسم بالطابع الجماعي، حيث شملت تعاونًا بين مختلف اللجان والجمعيات التي أُسست تحت إشراف السلطات الفرنسية. يمكن اعتبار هذا النهج الجماعي انعكاسا للحاجة الملحة إلى تجميع المعرفة في ظل جهل الفرنسيين الأولي بالجزائر، وكانت في البداية جل ما كتبوه عبارة عن مذكرات لرهبان وقساوسة مسيحيين جاؤوا إلى الجزائر في سياق فدية الأسرى، أو تقارير وعروض لقناصل ومبعوثين حكوميين وحتى الجواسيس في إطار التحضير لأعمال عدائية ضد الإيالة؛ وكذا كتب الرحالة الذين استقر بهم الحال بالجزائر لأهداف علمية واستكشافية فدونوا من خلالها مشاهداتهم وملاحظاتهم اليومية.

ورغم الجهل الأولي بالواقع الجزائري، حددت السلطات الفرنسية ثلاثة محاور رئيسية لأنشطتها البحثية

1 .**إنشاء اللجان العلمية ومنح التراخيص**: تم تشكيل لجان متخصصة ومنح أفراد — غالبًا من العسكريين أو الباحثين الفرنسيين – تراخيص لإجراء الأبحاث، هذا النهج عكس رغبة في ضبط عملية جمع المعرفة وتوجيهها نحو الأهداف الاستعمارية.

2. جمع وتسجيل الآثار التاريخية ركزت الجهود على التعرف على الآثار والمواقع التاريخية في الجزائر، بهدف توثيقها واستخدامها كدليل على "التقدم" الذي جلبته فرنسا إلى المنطقة.

3 .نشر الدراسات السابقة: تضمن هذا المحور نشر الأعمال التاريخية والجغرافية المتعلقة بالجزائر، سواء تلك التي أنتجها الباحثون الفرنسيون أو التي ترجمت من المصادر العربية.

تجسدت هذه المحاور في أعمال اللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر عام 1833 للتحقيق في أوضاع البلاد. وقد أنتجت هذه اللجنة تقارير شاملة تضمنت محاضرات وجلسات نقاش تناولت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، والتي أصبحت مرجعا أساسيًا للباحثين لاحقا، في عام 1837 أسست وزارة الحربية الفرنسية لجنة اكتشاف الجزائر العلمي، التي أصدرت دراسات معمقة تناولت التاريخ المحلي، مما ساهم في ظهور مجموعة من الأعمال التي كتبها عسكريون وباحثون فرنسيون.

عهد المؤرخين العسكريين (1830–1880م): والتي عرفها المؤرخ الفرنسي استيفان غزال بالمدرسة التاريخية الجزائرية القديمة في كتابة التاريخ، فقد تميزت بأن كتابها كانوا في غالبيتهم من العسكريين والمترجمين، كان دافعهم للكتابة إما هواية أو تنفيذا لأوامر فوقية ممثلة في قيادة جيش الاحتلال الفرنسي. معظمهم من ذوي مستولى تعليمي محدود جدا، ونسبة كبيرة منهم ليسوا بالفرنسين فقد وقع على هؤلاء عبء تعريف قوات الاحتلال والإدارة الاستعمارية بالمجتمع الجزائري وبمؤسساته وثقافته وتاريخه.

وجاءت أهم هذه الكتابات في شكل مذكرات شخصية وتقارير رسمية وروايات شفوية سجلها القادة العسكريون والحكام المدنيون، وذلك قصد التعرف على واقع الجزائر من خلال المشاهدة والملاحظة خلال الحملات العسكرية أو بواسطة المكاتب العربية، أو بالاعتماد على ما كتبه أو أدلى به بعض الجزائريين.

وقد وجد هؤلاء العسكريون كل الدعم المادي والبشري من طرف وزارة الحربية الفرنسية التي سارعت إلى تشجيع اللجان العلمية والجمعيات الأثرية والعديد من الهيئات والتي فتحت أبوابها أمام هؤلاء لنشر أبحاثهم ودراساتهم التي غطت مختلف جوانب التاريخ الجزائري واستطاع هؤلاء العسكريون أن ينشروا عددا معتبرا من الأعمال اعتمادا على الوثائق المكتوبة أو الروايات الشفوية التي تمكنوا من الاستلاء عليها أثناء الحملات العسكرية وكانت هذه الوثائق في مجملها عبارة عن وثائق العائلات ومذكرات رجال العلم وشيوخ الزوايا أو عقود العائلات الأحوال الشخصية والمعاملات الخاصة.

ولتقييم إنتاج هذه المرحلة، فقد أشار الأستاذ أبو القاسم سعد الله، الى أن أعمال هؤلاء العسكريين رغم اعتمادها على الجمع، لاسيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية، فإنها قد تركت للمؤرخين اللاحقين أرضية يبدؤون منها، ومنافذ يطلون منها على أحوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم إلا القليل. ومن هذا اعتمدت الإدارة الفرنسية في الشؤون الأهلية على متكونين تكويناً خاصا، وأسندت إليهم وظائف محددة يطلق عليه "المكاتب العربية " والتي تحولت فيما بعد عبارة عن الحكومة المحلية لتسير شؤون الأهالي الجزائريين.

وقد تعددت واختلفت الإدارة الاستعمارية من عهد إلى عهد، ولكنها بالنسبة للجزائريين ظلت تعتمد على المكاتب العربية حتى سنة 1840م، وهنا لا نستغرب تولي العسكريين الذين كانوا على صلة مباشرة كتابة تاريخ محكوميهم، وكان أشهر من مثل هذه المرحلة، نذكر على سبيل المثال؛ "بليسيه دو رينو" و"روزي وكاريت"، "وبيربريجر"، و"هانوتو".

تميز هذا العهد بغزارة إنتاجه التاريخي وتنوعه وذلك بسبب إصرار السلطات الاستعمارية على إعطاء

الجانب التاريخي أهمية لاستكمال عملية احتلال الجزائر، وهذا لا يتأتى الا بجمع التراث الجزائري ودراسته. ومن الخصائص الأخرى التي ميزت الكتابة التاريخية، أن البحث تركز بصفة ملفتة على الظاهرة الدينية في الجزائر المستعمرة، أو ما كان يسمى بالإسلام الجزائري. وخلفيات هذا التوجه، هو قناعة الإدارة الاستعمارية بأهمية ومكانة الدين الإسلامي في الوجدان الجزائري، فظهرت العديد من الدراسات، فكتب كاريت عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها، ومن كتاب هذا العصر أيضا" بيربروجر "الذي ملأ المجلة الإفريقية بمقالاته عن أخبار الجزائر المجموعة مباشرة أو المترجمة عن الكتاب المسلمين.

كما كتب هانوتو عن اللهجات والنظم الجزائرية وجمع دي لمار وثائق عديدة الآثار والخطوط إضافة إلى هذا توجه البارون دي سلان إلى ترجمة تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكري.

وتنص المؤلفات على أن أهم مؤلف فرنسي الذي وضعه الكاتب بيليسي في كتابه الشهير: (أخبار الجزائر) في ثلاث أجزاء وهو جانب كبير من الأهمية إذ سد فيه الأحداث اليومية منذ سنة 1830 إلى سنة 1847م، ذاكرا تفاصيلها بالاعتماد على مذكراته الشخصية والوثائق والمناشير التي كانت تدير شؤون المسلمين الجزائريين.

وعلى الرغم من ظهور كتابات أخرى اعتمدت على وثائق جديدة أكدت أطروحات صاحب أخبار الجزائر في إن هذا الكتاب كان أساس كل دراسة تناولت الفترة الأولى من الهيمنة الفرنسية على الجزائر.

إن التفاف هؤلاء الكتاب حول اللجنة العلمية جعل جماعة من الباحثين العسكريين تلتف حول مشروع اللوحة التي وضعت عن المنشآت الفرنسية في الجزائر، وقد ظهر. هذا المشروع الضخم في 17 مجلدا بين السنوات 1843 و1964م وفيه دراسات إحصائية تتعلق بأحوال السكان، ومازالت مرجعا للباحثين ومن كتاب هذا العهد شارل فيرو واسكندر بيلامار وأرنو وغيرهم.

تجمع هؤلاء الباحثين حول جمعية قسنطينة وحول الجمعية التاريخية الجزائرية، وأمدوا هذه المنشآت بالدراسة وتدوين المذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق الصوفية والآثار والتواريخ المحلية.

وقد اعتمد هؤلاء في كتاباتهم على مجموعة من المصادر الأهلية في غالب الأحيان وهذه المصادر نوعين مكتوبة وشفوية، فمن المصادر المكتوبة نذكر: وثائق العائلات الكبيرة، عقود الملكية، ومذكرات رجال العلم الجزائريين. أما المصادر الشفوية التي اعتمدوا عليها أكثر من الأولى جعلتهم يسجلون قصصا وأحداثا من مختلف المشارب والأنواع.

لقد ساعدت الإدارة الفرنسية هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق العربية والتركية التي وجدها الفرنسيون عند احتلال الجزائر وتتضمن هذه الوثائق المعاهدات ودفاتر الحساب والسجلات العسكرية والعقود والأوراق الإدارية، كما نشرت الإدارة الفرنسية وثائق هامة عن تاريخ الجزائر الديني والعسكري والبحري. لقد تركت هذه المؤلفات للمؤرخين اللاحقين أرضية يبدؤون منها ومنافذ يطلون منها على أحوال الأهالي الجزائريين.

مرحلة المؤرخين الأكاديميين (1880-1962م):

مع ثمانينات القرن التاسع عشر، دخلت المدرسة التاريخية الفرنسية مرحلة جديدة من ناحية المضمون ونوعية المؤرخين الذين تصدوا للكتابة التاريخية وظهر جيل جديد من المؤرخين بدأ في انتهاج الطرق العلمية والمنهجية خاصة بعد أن وفرت لهم الإدارة الاستعمارية الأدوات العلمية للقيام بمهامهم إن أغلبية كتاب هذه المرحلة كانوا من الأساتذة الجامعيين والباحثين المختصين. وكان لظهور المدارس العليا ثم الجامعات، أن أعطى دفعا قويا في مجال الدراسات التاريخية والأثرية وتنوعها، إذ أصبحت أكثر نضجا. وهنا علينا أن نشير الى المساهمة الكبيرة التي قدمها المعربون في النقلة النوعية هاته مما فتح مضمار البحث

التاريخي على مصراعيه. وما يمكن ان نشير إليه في هذا السياق أن هذا العهد سخر للكتابة عن الاستعمار والدفاع عنه وإظهار محاسنه، ومن ثمة إضفاء الشرعية عليه خاصة وأن هذا العهد تزامن مع الاحتفال بمرور الذكرى المئوية على احتلال الجزائر والتي جندت لها الإدارة الاستعمارية إمكانيات ضخمة مكنت من صدور كم هائل من الدراسات والأبحاث التي تمجد الاستعمار الذي مكن الجزائريين من التخلص من نير الاستبداد التركي الى عصر الحرية والديمقراطية التي جاء بها الفرنسيون.

بدا العهد الجديد من كتابة التاريخ عند الفرنسيين بتأسيس جامعة الجزائر سنة 1880، كما صدر قانون بإنشاء المدارس العليا بالجزائر والتي كانت تضم مدرسة الآداب ومدرسة الطب ومدرسة الحقوق، ومدرسة العلوم، وقد تكاتفت جهود أساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والأثرية، وكتاب الدوريات العلمية وأساتذة التاريخ في الثانويات الذي نتج عنه الاهتمام بتاريخ الجزائر.

إن دراسات هذا العهد تعكس مدى تبعية التاريخ للاستعمار وما مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط الأمر بمصلحة وطنه ويضحي في سبيل ذلك بقيم البحث وأخلاق العلم، وان كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتأريخ له لكي تعمل على إنجاحه واستمراره.

لقد تصادف ميلاد جامعة الجزائر مع احتلال فرنسا لتونس واهتمامها بقضية المغرب الأقصى، ومن هذا اتسعت رقعة البحث لدى المؤرخين فأصبحوا يتناولون في كثير من الأحيان تاريخ شمال إفريقيا بصفة عامة، ويربطون بين مصالح فرنسا في الأقطار الثلاثة.

نجد بعض المترجمين والباحثين في الجزائر قد أصبحوا عاملين في تونس والمغرب، حيث تأسست سنة 1935 إتحاديه الجمعيات العلمية لشمال إفريقيا وظهر معهد الدراسات الشرقية في الجزائر سنة 1933 الذي اهتم بالحياة العربية الإسلامية لماضي الجزائر الذي تولى أموره جورج مارسي من أشهر الأساتذة الجامعيين الذين برزوا في هذا العهد "السيد ماسكري" الذي لم يختص بالموضوع عينه، و"ريني باسيه "الذي اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية، و"دوتي " الذي كرس جهوده للأبحاث الاجتماعية.

يضاف إلى هؤلاء عدد من المهتمين بتاريخ شمال إفريقية في فرنسا أمثال شارل أندري جوليان (تاريخ شمال إفريقيا) و"مانصو" (التاريخ الأدبي لإفريقيا المسيحية).

لقد أنشئت عدة مصالح ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين في أداء مهمتهم حيث تأسست سنة 1880 مصلحة الآثار التاريخية بالجزائر والتي قامت ببعث مدينتي جميلة وتيمقاد الرومانيتين، وفي باريس تأسست سنة 1883 لجنة إفريقيا الشمالية التي كانت مهمتها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الأثرية.

وفي عهد جونار تأسست سنة 1915 لجنة بالجزائر عهد إليها بنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي في الجزائر وعلاقات الأهالي معهم. وضمن هذا المشروع صدرت مراسلات "كلوزيل" و"روفيقو" وأثار بوتان كما صدر كتاب (الجزائر في عهد الأمير عبد القادر).

وبحلول سنة 1956 احتفلت الجمعية التاريخية الجزائرية ومجلتها الإفريقية بمرور مائة سنة على الاحتلال، حيث قدم عدد من المؤرخين الجامعيين والباحثين، دراسات هامة عن تقدم الكتابات التاريخية خلال سنوات 1930- 1956 نذكر من بينها مقالة "ياكونو" الذي تناول فيها تقييم ما كتب منذ الاحتلال.

إن الواقع يبين أن المؤرخين الفرنسيين في الجزائر قد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال لكنهم أهملوا دراسة تطور المجتمع الجزائري وسياسته نحو الجزائريين.

-نماذج من المؤرخين الفرنسيين الأكاديميين:

ولعل أبرز نموذجين عن الكتاب الأكاديميين المتخصصين في تاريخ الجزائر والحقبة الاستعمارية نجد شارل أندري جوليان وروبير أجيرون.

1-شارل روربير أجيرون:

لقد كان للمؤرخ الفرنسي شارل روبير أجيرون إلمام واسع بتاريخ الجزائر المعاصر الذي كرس له أربعين (40) سنة من عمره في تدريسه في عدة جامعات فرنسية، ومن هنا نجده قد كون جيلين من المؤرخين المختصين في تاريخ الجزائر المعاصرة ، وأصبح جل الطلبة الذين درسوا عنده أساتذة معروفين كونوا بدورهم باحثين ومدرسين في نفس المجال العلمي، وأثروا بانتهاجهم الفكري التاريخي على مشاريع البحث التاريخي في مجال تاريخ الجزائر المعاصر بالدرجة الأولى وبشكل عام وتاريخ الثورة التحريرية الكبرى بشكل خاص.

وقد نشر هؤلاء الباحثون مقالات حول شخصه أجيرون بعد وفاته مبرزين تأثرهم بأستاذهم وعبروا عن تقديرهم واستفادتهم من تجاربه العلمية النفيسة ومن بين هؤلاء نذكر الدكتور عبد الحميد زوزو الذي أشرف أجيرون على أطروحة دكتوراه الدولة له وقال عنه : "أنه يميل إلى الطلبة الجزائريين والترحيب بهم والإشراف عليهم ومنحهم مجموعة التسهيلات والمساعدات التي يقدمها لهم في مجال البحث علمي والإداري تطورت كتابات تاريخ الجزائر عند شارل روبير أجيرون فنجده قد وجه اهتمامه البحث في المرحلة الأولى بتاريخ الاستعمار الفرنسي للجزائر أما المرحلة الثانية فتوجه للبحث حول السياسة

الاستعمارية وقام بنشر دراسات عديدة حولها مبيناً أساليب القمع والسيطرة القهرية التعسفية المفروضة على الشعب الجزائري خاصة حول مجازر 08 ماي 1945م.

كذلك أشرف على العديد من الطلبة الجامعيين الجزائريين على خلاف عبد الحميد زوزو نجد الطالبة زهرة قشي. ومن الطلبة الفرنسيين في فرنسا نجد بنيامين ستورا، وغوري برقي وقد أصبح هؤلاء الطلبة مؤرخون مهمون في محال البحث التاريخي للجزائر المعاصرة.

أجيرون كان من المؤرخين الذين ذاع صيتهم في محال التاريخ والاهتمام بكتابة وتدوين تاريخ الجزائر المعاصر، وذلك ما لاحظناه ووجدناه في أعماله التي تشهد له بالكفاءة العالية والروح العلمية النزيهة وأن كتاباته تزامنت مع الاحتلال.

وقد اعتمد أجيرون في منهجه في كتابة التاريخ على نظرة مخالفة نوعا ما عن بقية المؤرخين الفرنسيين وهذا ما يظهر في قوله:" للجزائريين الحق كل الحق في التشكي من بعض المؤرخين الذين لم يكونوا منصفين في دراساتهم لتاريخ الجزائر، إما لغرض لأنفسهم أو بسبب جهله لحقائق الأمور ... إنّ النظرة الاستعمارية كثيرا ما أوقعت في ضلال مبين بعض المؤرخين سواء النزهاء منهم أو المغرضين ولهذا فإنّ تطهير التاريخ الجزائري من الشوائب الاستعمارية أصبح من أكد الواجبات بالنسبة إلى كل الحقيقة التاريخية الناصعة، سواء كان أوروبيا أو من أبناء المغرب العربي".

وعليه فرغم أن أجيرون ينتمي إلى المدرسة الفرنسية إلا أنّ منهجه في كتابة وتدوين تاريخ الشعوب المستعمرة ونخص بالذكر تاريخ الجزائر قد تميز بالنزاهة والموضوعية معتمدا في ذلك على استنطاق الوثائق الأرشيفية التي حملت حقائق الاحتلال وجرائمه اتجاه الشعب الجزائري، غير أن هذا لا يعني مساندته للحركة الوطنية والثورة بشكل كلي، فقد شكك مثلا في عدد ضحايا مجازر 08 ماي 1945م فهو حدد عددهم بـ 250 ألف شهيد.

وهو بهذا يطرح القضايا حسب منطقه ونظرته ولا يتحيز إلى أي طرف هذا ما جعل الفرنسيين ينتقدونه بسبب تحديه للإيديولوجية الاستعمارية وعلى هذا الأساس قاموا بمحاصرته في الجامعات الفرنسية والضغط عليه حتى أصب معزولا عن النشاطات العلمية.

تغيرت نظرة شارل روبير أجيرون اتجاه الجزائر وكل ما يتعلق بها منذ أن جاء الجزائر سنة 1945م لأول مرة وهو يؤدي الخدمة العسكرية، وهنا اكتشف حقيقة الاحتلال الفرنسي خاصة وأنه كان شاهد عيان على تلك المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين في 08 ماي 1945م بعد أن ساهموا بكل يملكون

للوقوف معها ونصرتها ضد الألمان، وهذا ما جعله يتوجه إلى البحث العلمي لكشف مظالم الاستعمار، ثم عاد مرة أخرى إلى الجزائر بصفته أستاذا في إحدى ثانويات الجزائر ومكث بها 10 سنوات (1947–1957م) وهنا زاد تقربا من مأساة الجزائريين وزادت كتاباته التزاما بالموضوعية.

وهكذا ما يمكن أن نقوله عن شارل روبير أجيرون هو أنه استطاع ان يكتب عن تاريخ الجزائر بموضوعية متجاوزا في ذلك مشاعر الإنتماء إلى وطنه الذي أحدث في الشعب الجزائري كل تلك المآسي التي رآها، رغم أنه فرنسي إلا أنه تأثر بما كان يحدث في الجزائر واستطاع أن ينقل لنا صورة واضحة عن تاريخنا رغم بعض التجاوزات، إلا أن منهجه عموما كان مقبولا إلى حد ما مكنه من إدراجه في قائمة المختصين الأكاديميين الذين ينظرون إلى الأحداث لا على أساس الوطنية وإنما على أساس حقيقة الوقائع وصدقها، وبهذا فهو يمثل صورة المؤرخ الموضوعي الذي قلما نجد مثله في المدرسة الفرنسية خاصة وأن مطلقاته كانت من الوثائق الأرشيفية.

اهتم أجيرون بقضايا مختلفة كانت في نظره كلها مهمة وتستدعي المناقشة والدراسة، واهتم في كتابة تاريخ الجزائر بالمرحلة الأولى من تاريخ الاستعمار، أما في المرحلة الثانية فقد توجه نحو تاريخ سياسة الاستعمار. فنجده قد تناول أدوات السياسة الاستعمارية في السيطرة على الجزائر من خلال التطرق لذكر قانون التجنيس، انتفاضة 1871م، ظهور النخبة الجزائرية، حركة الشبان الجزائريين، مشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الأولى، دور النخبة في الثورة والقوى المضادة الصراع حول القيادة خلال الثورة... إلخ. وقد اعتمد أجيرون في مواضيعه على معلومات دقيقة وإحصائيات مقتبسة من الأرشيف المتعلق بالثورة الجزائرية، وهو عالم لم يلجه إلا قلة من المؤرخين الفرنسيين في بداية التسعينيات تحت الضغط الذي مارسته حكومة موريس بابون. وقد ألف أكثر من 20 كتابا في تاريخ الجزائر والعديد من المقالات نكر من بينها:

"الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919م"، "تاريخ الجزائر المعاصر 1830–1988م"، "حكومة الجنرال بير تزان بالجزائر سنة 1831م"، "السياسات الاستعمارية في المغرب العربي"، "تاريخ الجزائر المعاصرة 1871-1954م"، "الجزائر الجزائرية من نابليون الثالث إلى ديغول"، وغيرها.

اعتبره البعض معتدلا ونزيها لكنه في الحقيقة سار في نفس الإتجاه للمدرسة الاستعمارية وعلى نفس المنوال، فقد أرخ للحركات الوطنية في كتابه" إفريقيا الشمالية تسير ودافع فيه عن الاستعمار الفرنسي وافتخر بأعماله ومنجزاته، بينما دأب على التحريض بالوطنين الجزائريين، وافتخر بمنجزات الاستعمار الفرنسي، وإثارة روح التفرقة العنصرية والطائفية فيما بينهم باستعماله مصطلحات البربر والعرب عن قصد

ويحاول أن يفاضل بين الفتح الإسلامي، والغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، ويحاول المقارنة بين مجازر الحجاج بن يوسف في العراق وبين مجازر الجيش الفرنسي في الجزائر.

2- شارل أندري جوليان:

مؤرخ وصحافي فرنسي مختص في شؤون المغرب العربي، انتقل شارل أندري جوليان وهو في 15 من عمره ليعيش في الجزائر. كان من المؤرخين الذين حاولوا أن ينصفوا الجزائريين ويساندوهم في كفاحهم ضد المستعمر الفرنسي. متجاوزا بذلك الخطاب الاستعماري في كتابة تاريخ شمال إفريقيا والجزائر، متأثرًا بمدرسة الحوليات عبر التركيز على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لا السياسية فقط، واستخدام المصادر المختلفة لكشف تاريخ الجزائر قبل الاستعمار وإبراز حركات المقاومة، وهو ما جعله شخصية مهمة ومرجعاً رغم وجود بعض الانتقادات لدوافعه الاستعمارية.

وقد انتمى إلى اليسار الفرنسي وتعرف على مثقفين وسياسيين معارضين للنظام الاستعماري ومن بينهم "فيليسيان شالاي " و"اندريه جي" وغيرهما. كان ممن تولوا رئاسة تحرير المجلة التاريخية (historique revue) وباعتباره أستاذا جامعياً وعضوا في الحزب الاشتراكي الفرنسي ومستشارا في الاتحاد الفرنسي، فقد كان مهمشا وفي نفس الوقت مراقبا من قبل السلطات.

إلا أنه ورغم النظرة الموضوعية التي اتسم بها في كتاباته إلا أنه لم يكن بمنأى عن النظرة الاستعمارية التي صبغت جل كتابات المؤرخين الفرنسيين على اختلاف مشاربهم وتخصصاهم، حيث كتب شارل سنة 1931 كتابه الأول "تاريخ إفريقيا الشمالية"، وفيه فند الأطروحات الإستعمارية التي تقول بأن تاريخ الجزائر يبدأ من عام 1830، وأن الدولة الجزائرية لم تكن إلا بالاسم، وهذا خطأ كبير من مؤرخ كبير مثله فالدولة الجزائرية كانت قائمة الأسس والدليل على قولنا هي المعاهدات التي أبرمتها الجزائر مع الدول الأوروبية الكبرى.

كما أنه أطلق على فترة الحكم العثماني بالجزائر بالاستعمار التركي فهو يقول: إن النظام الإستعماري الذي طبقه الأتراك بكل حزم لم يسمح للجزائريين بالتقدم نحو الوحدة، وكان لزاما عليه كمؤرخ قبل اصداره للحكم على العهد العثماني بالاستعمار قراءة التاريخ الحديث للجزائر والعودة للمصادر الأجنبية والإسلامية التي يعترف بها حتى الفرنسيون لقراءة هذه الحقبة من تاريخ الجزائر، فالجزائريون هم الذين استنجدوا بالأتراك والأتراك بعد قدومهم إلى الجزائر ساهموا في إرساء دعائم الدولة الجزائرية واعطائها مفهوم الدولة بمفهومه القانوني الحديث.

جوليان أنكر وجود الشعب أو الأمة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي وهو اتبع بذلك منطق المؤرخين الاستعماريين الذين زعموا أن فرنسا لم تجد شعبا أو أمة في الجزائر وإنما وجدت قبائل متناثرة ومتنافرة ووجدوا أرضا سائبة يحق لكل أجنبي أن يحتلها.

رغم كل هذا لا يمكننا أن ننفي جانب الموضوعية في كتاباته عن تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا في بعض المواضيع، أما الذاتية فلا يمكن انكار وجودها في كتاباته ولهذا فعلى الدارس لتاريخ الجزائر أن ينتبه فجوليان أو غيره من الكتاب الفرنسيين يبقوا أبناء المدرسة الاستعمارية الفرنسية وإن حاول البعض منهم اخفاء ذلك فلغتهم التاريخية فضحت ذلك.

-أسباب اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر:

رغم جهل الفرنسين في الأول الامر بواقع الجزائر وتاريخها ورغم انشغالهم بعمليات الحملة واحتلال وافتقارهم في البداية الى الذوق الثقافي فإنهم اتجهوا في نفس الوقت البحث في ثلاثة مجالات وهي نشر الآثار القديمة عن الجزائر؛ إنشاء اللجان العلمية ومنح الرخص للأفراد للقيام بعمليات البحث وللجمع والتعريف بالآثار التاريخية في البلاد، وكذا تكوين الجمعيات المختصة والصحف والدوريات التي تحفظ المكتشفات التاريخية.

في ما يخص المجال الأول نشروا منذ 1830م كتب الرحلات والانطباعات الأوروبيون عن الجزائر خلال العهد العثماني. مثل "شيلروشو" و"بانانتي"و "رونودو" و"هايدو"، كما نشروا غزوات "خير الدين وعروج" مترجمة عن النسخة العربية. واهتموا (بالزهرة النيرة). وعادوا إلى كتب المؤرخين والرحالة العرب لدراسة حملة شارل الخامس على الجزائر وشرعوا في نشرها جزئيا أو كليا كابن خلدون وبكري والعياشي وحسن الوازن (ليون الإفريقي) وغيرهم. ومن جهة أخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا ومذكرات وتقارير القناصل والجواسيس الفرنسيين أمثال "دوبوا تانبيل " و"بوتان وكريسي"، واهتموا بأرشيف الغرفة التجارية بمارسليا وتقارير الشركات الفرنسية التي توالت على ما كان يسمى بحصن فرنسا، وبالإضافة إلى ذلك أبدوا اهتمام بالوثائق العثمانية.

أما بخصوص المجال الثاني (اللجان العلمية) نجد اللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر سنة 1833م، قصد التحقيق في مصير الجزائر تنتهي أعمالها بتقارير ومحاضر غنية عن الجزائر في مختلف المجالات، لاسيما الاقتصادية والاجتماعية.

في 1837م أنشأت وزارة الحربية لجنة باسم "اكتشاف الجزائر العلمي"، ونشرت دراسات هامة في أجزاء من الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات، كذلك قام العديد من الأفراد يبحثون وينشرون أعمالهم في التاريخ المحل ن اللهجات والطرق والنظم وطبائع السكان والزوايا والحياة القبلية ...إلخ. وقد ظهرت من ذلك مجموعة من الدراسات والانطباعات التي كتبها عسكريون فرنسيون.

أما المجال الثالث المتعلق بالجمعيات والصحف فقد ظهر هو الآخر منذ بداية الاحتلال فمنذ جوان 1830 في سيدي فرح ولدت الصحافة الفرنسية بالجزائر والتي لم تكن صحافة بالمعنى الدقيق للكلمة لأن أول جريدة أسسها الفرنسيون في الجزائر كانت "المرشد الجزائري" والتي اهتمت بالإضافة إلى القرارات الرسمية والتاريخ المحلي وأخبار المسلمين وحركة الأهالي وكان على رأسها السيد "بيرو بروجر" ذي كان له دور في إدخال كثير من عوامل الحضارة الأوروبية في الجزائر.

ثم صدرت جريدة الأخبار سنة 1839م، اهتمت بالأبحاث التاريخية إلى جانب كونها جريدة سياسية، وقد اهتمت جريدة المبشر التي ظهرت في سنة 1847م بالأخبار المحلية وان كانت قليلة ولاسيما في عهدها الأول.

غير أن تأسيس جمعية قسنطينة للآثار سنة 1852م، قد أدى إلى ظهور دوريات متخصصة في الدراسات التاريخية والأثرية، فقد كانت هذه الجمعية تصدر منذ عامها الأول تقويما تحول فيما بعد إلى مجموعة (Recuell) من الدراسات والملاحظات المتعلقة بتاريخ المنطقة.

ظهرت في الجزائر سنة 1856م الجمعية التاريخية الجزائرية والتي أصدرت المجلة الإفريقية، وفي سنة 1878م ظهرت بوهران "جمعية وهران الأثرية" التي أصدرت نشرة تضم أبحاث أعضائها ومراسيلها عن تاريخ وهران إلى هذه الدوريات والجمعيات ظهرت مكتبة الجزائر 1835م وبدأت العمل سنة 1838م. ومتحف أثري حيث أصبحت المكتبة والمتحف منطلقين للباحثين في تاريخ الجزائر يجيدون فيهما المخطوطات العربية والمطبوعات والآثار التي تعتبر عدة المؤرخ.

انطلق الفرنسيون في كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات أهمها، كونهم تغلبوا على الجزائريين بقوة، ولأنهم يرون في أنفسهم شعبا متحضرا حكموا شعباً متخلفاً، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم وهذه المعطيات هي التي قررت نوعا من الحتمية التاريخية عندهم، وهي التي حددت منهجهم الشي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين، هناك دافع السيطرة والاحتلال، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها ومن أجل ذلك استغل الفرنسيون

أيضا ما كتبه الكتاب الجزائريين ونذكر على سبيل المثال ما كتبه العنتري وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة، وما ترجمه ونشره ابن أبي شنب والحفناوي وغيرهما بتحريض من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين، دافع الدين، فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين أوربا المسيحية دام ثلاثة قرون والأوروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة، وهو في الواقع كان الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر أولاً لمعرفة أسرار العهد المشار إليه، وثانياً لتحطيم المعنويات التي قد تحدث.

تأثرت هذه المدرسة بالنظريات الفلسفية الأوربية في تفسير أحداث التاريخ الإنساني معتبرة أن الحضارة الأوربية هي الحضارة المثلى الواجب الاقتداء بها وما عداها من الحضارات هي نماذج متخلفة وغير صالحة وكان الانسياق وراء هذا النوع من النظريات، وقوعها في العديد من الأخطاء والتحريفات والتفسيرات الواهية والغير مؤسسة على قواعد علمية ومنهجية، وكذلك طمس فترات وحقب تاريخية في تاريخ الجزائر للوصول الى غايتهم وهي أن الجزائر لم يكن لها كيان سياسي ولا مكانة دولية في الفترة الحديثة، وأن الظهور الحقيقي لشخصية الجزائر كان مع الاستعمار الفرنسي.

لقد تنوع إنتاج المدرسة الفرنسية والذي يتصف بوفرة المادة وتنوع الاهتمامات والميل إلى معالجة المواضيع المتخصصة، ومحاولة استخدام تقنيات البحث التاريخي في دراسة ما توفر من معلومات تاريخية، إلا أن هذا الإنتاج ظل يتميز بقلة العمق والتسرع في الأحكام وسطحية التفكير.

إن المادة التاريخية التي استعملها الكتاب الفرنسيون لم تكن تتجاوز في أغلب الأحيان المصادر الغربية والأرشيفات الأوروبية التي يتألف أغلبها من مذكرات الرحالة ومراسلات القناصل وحكايات المسافرين وتقارير البحارة وانطباعات الرهبان والجواسيس. وبذلك ظلت المصادر الأساسية متمثلة في وثائق الأرشيفات ومخطوطات المكتبات المحلية في الجزائر وتركيا مهملة مع كونها تتضمن المادة الخام لهذه الدراسات، والغريب في الأمر أن الكتاب الفرنسيين لم يفكروا في الرجوع إليها واستغلالها في كتاباتهم التاريخية، بل لم يكلفوا أنفسهم حتى محرد البحث عن أماكن تواجدها في الجزائر واسطنبول. لقد اعتمد الكتاب الفرنسيون على المصادر الأوروبية دون سواها وذلك راجع إلى القدرة على جمع هذه المصادر المحلية من طرف الحكام العسكريون والإداريون، وانصب اهتمامهم على محاولة التعرف على واقع الجزائر آنذاك.

نتج عن هذا الإهمال للمصادر المحلية أن أصبح كثير يشككون في صحة تلك الوثائق العربية واصفين إياها بالتجريد والمبالغة. إن إهمال المصادر العربية والاعتماد الكلي على الوثائق الأوروبية المتصلة بالفترة السابقة

لتاريخ الجزائر، كان بمثابة رفض للتعرف على الحقيقة التاريخية وتجاهل صريح لواقع الطرف الأخر الذي يكتبون عنه بغية التعرف عليه.

وقد أدت هذه النظرة المغرضة لكتاب الفرنسيين إلى تجاهل الوجود التاريخي للشعب الجزائري، واعتبار الجزائر منطقة فراغ حضاري يفتقر إلى وجود شعب متماسك وأمة متكاملة، فهذه النظرة لم تكن الجزائر منطقة جغرافية تتوافد عليها جماعات متطاحنة خاضعة للقوة والتعسف.

ساهم الفرنسيون في تطوير المدرسة الاستعمارية من خلال استخدام تقنيات البحث الحديث في تصنيف المادة التاريخية حسب الاختصاصات، والتقيد بالفهارس والتبويب مع التطرق لنقد بعض المصادر والوقوف منها موقف الحذر والتساؤل خاصة إذا كانت ذات مصدر عربي على استخدام منهجية البحث أضر بها في كثير من الأحيان التقيد بمواصفات الحضارة الغربية ومتطلبات التاريخ الأوروبي الحاقدة على الجزائر .كذلك تم تنشيط الدراسات التاريخية وتشجيع الإنتاج التاريخي الذي يتصل الكثير منه بالعهد العثماني ففي نطاق هذا النشاط الثقافي بجدر الإشارة اللجنة الإفريقية أثناء زيارتها للجزائر سنة 1833م تركت محاضر جلسات لا يمكن للباحث الاستغناء عنها ولها قيمة العلمية وما قامت به استكشاف الجزائر العلمي نجد بعض المؤرخين قد اهتموا بالطرق الصوفية ورجالها وبكتب الفقه والأصول كمصادر للتفكير الأهالي فإنهم وقفوا موقفاً مشبوهاً من الإسلام، من خلال عدم وجود معارضة حول تحويل المساجد إلى كنائس.

أصبحت الكتابات الفرنسية الأرضية الخصبة والمرجعية المعتمدة، حيث تعتبر في نظرهم المصدر الرئيسي لكثير من الكتابات التاريخية. لكن واقع هذه الدراسات أنه من الخصائص الأساسية للمدرسة الفرنسية الاستعمارية أنها ظهرت لتبرر الغزو والسيطرة الامبريالية وسموها الحضاري والثقافي على حساب الشعوب المستعمرة، وكونها ذات طابع إيديولوجي بالدرجة الأولى قبل الصفة العلمية، وهذا الطابع طغى على أعمالها منذ النشأة، وواكب مسيرتها عبر الزمن متجليا في سعيها لتهميش المجتمع الجزائري وتقديمه في أضيق نطاق، ليس فقط بالنسبة لفترة الاحتلال وإنما لجميع فترات التاريخ الجزائري.

لقد كانت النزعة السائدة هي كراهية الجزائر، فقد تضنت كتب الفرنسيين الجو المعادي والموقف المعاكس لكثرة الأزمات وتوتر العلاقات بين الجزائر ومعظم الدول الأوروبية، فتعتبر الجزائر في مؤلفاتهم "جحر اللصوص وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق " وأنهم أهل استبداد الأخلاق

همهم الوحيد هو نهب الأموال. وتفنن هؤلاء المؤرخين في وصـم الجزائر وقالوا أنها سرب النسور الجائعة غريزتهم النهب والطمع.

إن هـذه المدرسـة يشوبها بعض النقائص التي تجلت في الجانب المنهجي، حيث كانـت هـذه النقائص مفتعلة وجزاً أساسي في تكوين مدرسا الاستعمارية، وقـد واكبـت هـذه الميزات نشأتها ومرحلة نضـجها علـى السـواء، وعمـل هذه المدرسة يتمثل في تدعيم الكيان الاستعماري وترسيخ أسسه في محال الحقيقة أن الكتـاب الفرنسيين لم يكتشفوا الجزائر اكتشـاف أوروبـا لأمريكـا.

تمادت المدرسة الفرنسية على نكران الشخصية الجزائريـة ونفـي وجـود أي مؤشر عنها عند احتلال فرنسا للبلاد والتأكيد على أن الشخصية لم تظهر إلا فيما بعد، وذلك بفضل الإدارة الفرنسية، فموقف هذه المدرسـة مـن الجزائري ومن ثقافته ومؤسساته وتقليده وباختصار مـن مقوماتـه يتميـز بالتعالي. لقد سيطرت عليها النظرة الأورو مركزية واعتبار أن الحضارة الأوروبية الحضارة الإنسانية بأكملها. أدت تلك النظرة إلى ارتكاب أخطاء كبيرة في فهم تاريخ شعوب غير الأوروبية وإلحاق تحريفـات لتراثها وحضارتها فتميزت أعمالها بنـوع مـر والرغبة في تصفية الحساب القديم ، فقد عمدت إلى طمس مآثر الشعب الجزائري وأمـاده عبر التاريخ لنكـران وجـوه كشخصية وطنيـة وأخذ حقـه في أن يكـون لـه تاريخ وماضي مثل أي شعب، وقد بذلت كل ما في وسعها في هذا المجال لـدعم وجـود سياسـة الاحتلال، وهـذا لتسهيل مهمة الإدارة الاستعمارية الهادفة إلى تحويـل شـعب بكامله مـن حالة مجتمع إلى حالة أفراد مدمجين .والنقص الذي

يلاحظ في منهج عمل المدرسة التاريخية الاستعمارية يمكن حصره في العناصـر التالية:

- ✓ التركيز على بعض الفترات من تاريخ الجزائر وإهمال الباقي.
- ✓ تفضيل بعض الوسائل والأدوات المنهجية عن الأخرى أو إهمالها وهذا ذكرها وتجريدها عند ذكرها.
- ✓ التجرؤ على كتابة عصر أو عصور بكاملها وفق قالـب تم رسم مسبقا الوقائع والأحداث فيه.
- ✓ التسرع في التفسير والتنظير في قضايا تاريخ البلاد قبل استكمال الشـروط الضرورية التي تسمح بدلك.
- ✓ كان لهذه المدرسة موقفاً من المقاومات الشعبية فقد ادعت أن الجزائريون عنصريون متعصبون دينيا وعرقيا لا يستطيعون التكيف والتعايش مع المسحيين وأن هذا ما يفسره القيام بالثورات والمقاومات باستمرار، بدليل كثرة رجال الدين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية والذين كانوا الرأس المحرك.

إلا أنه وبالرغم من كل ما تم ذكره من عيوب ومغالطات تضمنتها جل الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر إلا إن المساهمة الفرنسية في كتابة تاريخ الجزائر حقيقة هي مساهمة غزيرة ومتنوعة، إلا أن دراسة هذا التاريخ من جهة واحدة وحصره في زاوية ضيقة بالاعتماد على المصادر الغربية وإهمال الكتابات المحلية والتي تظهر الوجه الحقيقي لهذه الأمة، يجعل منه تاريخ يعتمد في تأليفه على الذاتية الجارحة والتزييف والتضليل ما يجعل منها كتابات ذات توجه استعماري تفتقد لروح البحث العلمي الموضوعي. وفي هذا الصدد يرى المؤرخ "يحي بوعزيز" أنه على الباحثين والمؤرخين الجزائريين غربلة الكتابات الفرنسية وتمحيصها والتدقيق في محتوياتها بمقارنتها بالمؤلفات المحلية، مع عدم الاعتماد عليها كلية، ولكن في نفس الوقت لا يمكن الاستغناء عنها.

وما يتضح لنا هو اختلاف موقف المؤرخين حسب انتمائهم السياسي أو العلمي، فبينما نجد نزعة تتميز بمحاولة تشويه تاريخ الجزائر جلية وواضحة عند ضباط الجيش الفرنسي والدبلوماسيين الذين انكبوا على دراسة التاريخ والذين يبثون أصداء النظريات السياسية والحملات العسكرية، نلاحظ من جانب آخر أن المؤرخين الجامعيين المتخصصين التزموا بالمنهجية العلمية، ولكنهم لم يكونوا بمنأى من التأثر بنظريات المؤرخين الاستعماريين الذين استغلوا فرصة قلة المعلومات لاسيما في الفترات القديمة, فسمحوا لأنفسهم بإصدار أحكام مسبقة مبنية على أدلة وحجج واهية موجهة كلها لتمجيد الحضارة اليونانية والرومانية والحط من قيمة الإسلام والمسلمين، بالرغم من أنهم اعتمدوا على مصادر عربية، لكنهم كثيرا ما شككوا فيها واتهموها بالتجريد والمبالغة .